المعز المذل

المعتمد بن عبـاد ملك إشبيلية في عصر ملوك الطوائف مـن بني عباد، ولد في باجـة «إقليم في البرتغال حاليًّا» وتوفي في أغمات ٤٣١ هـ - ٤٨٨ هـ / ١٠٤٠ - ١٠٩٥م، اسمه محمد ابن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي، أبو القاسم المعتمد علـى الله، كان شابًّـا، فارسًا، شاعرًا مجيـدًا، يحب الأدب؛ فاجتمع في بلاطه نجوم ساطعة من أرباب القصيد ونوابغه، أمثـال أبي بكـر بن عمار، وابـن زيدون، وابـن اللبانة، وابن حمديـس الصقلي، وفضلًا عن كون المعتمـد شاعرًا مجيدًا، فقد كانـت زوجته إعتمـاد الرميكية شاعـرة كذلك، وكانت إشبيلية حاضرة دولته آية في الجمال.

كان المعتمـد بن عبـاد، حين آل إليه حكـم إشبيلية سنة (٤٦١ هـ = ١٠٦٨م)، في الثلاثـين من عمره، امتلك قرطبة وكثـيرًا مـن المملكـة الأندلسية، واتسـع سلطانه إلـى أن بلغ مدينة مرسية.

عاش ابن عباد أيام ملوك الطوائف، وهم ملوك تقاسموا الدولـة الأمويـة في الأندلـس، وحكـم كل واحد منهـم جزءًا أو دويلـة، حتـى بلغ مجموع تلـك الدويلات إحـدى وعشرين دولـة، لكل دولة منهـا عرش وملك وجيش ضعيـف، ولما رأى

ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة ضعفهم وتفرقهم هجم على طليطلة، فاجتاحها، واستردّها، ثم أرسل إليه رسولًا معه خمس مئة فارس يحمل رسالة تهديد من ألفونسو بأن على المعتمد أن يتنازل عن حصون معينة، وحشد الرسالة بالتهديد، فثار المعتمد، وجمع العلماء، فاتفقوا على الاستنجاد بزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين في الشمال الإفريقي، وتمّ القرار في الحال، فأمر المعتمد بقتل الفرسان النصارى جميعًا، وضرب الرسول، وبصق في وجهه، وفي الحال أصدر ابن تاشفين نداءً بـ «الجهاد» فتسابق شباب المسلمين إلى الساحة، وأقبل المتطوعون من أرجاء البلاد، حتى ازدحمت البلاد بالمجاهدين المسلمين، وأقبل ألفونسو في أربعين ألف جندي، وكتب إلى أمير المسلمين ابن تاشفين يتهدده، فكتب له على ظهر خطابه: «جوابك هو ما سوف ترى» ثم التقى الجمعان في مكان قريب من بطليموس (Badajoz) حاليًّا على حدود البرتغال في سهل واسع من الأرض يقال له: الزلاقة.

كانت استجابة يوسف بن تاشفين سريعة مذهلة، فقد أقبل في قرابة مئة سفينة، ونيف وعشرين ألف جندي، واندفع إلى الزلاقة، فوجد المعتمد بن عباد قد سبقه، وقضى ليلة كاملة يهاجم، وتنهشه الجراح، وفي اللحظة المناسبة وصل

المرابطـون، وقائدهم إلى قلب المعركة، وتكامل عدد الإسبان خمسـين ألفًا. هرب القائد ألفونسـو في بضعة رجال، وكانت الواقعة يوم الجمعة الأولى من شهر رمضان، حيث قتل جميع الجيش النصراني، فلم يعد منهم سوى ثلاث مئة.

كان أمـير المسلمـين يوسـف بـن تاشفـين في أول الأمر يحـترم المعتمد بن عباد، ويقول: هو ضيفنا، ولكن نفرًا وشوا إلى ابن تاشفين بأن المعتمد يميل إلى الترف.

أمـر قائد المرابطين بحمل المعتمد بن عباد وآل بيته إلى منفاهـم بالمغرب، وسارت بهم السفينة مـن إشبيلية في نهر الوادي الكبير في طريقها إلى المغرب، وخرج الناس لتوديعهم محتشدين على ضفتي النهر، وقد ملأ الدمع أعينهم، وذابت قلوبهـم حسرة وألمًـا على ملكهم الـذي أدبرت عنـه الدنيا، فخـرج هـو وأسرته على هـذه الصـورة المخزية بعـد الجاه والسلطـان، وقد سجل الشاعر الأندلسـي الكبير ابن اللبانة هذا المشهد الحزين بقصيدة مبكية جاء فيها:

حـان الـوداعُ فضـجّت كـلُّ صـارخـةٍ
وصـارخٍ مـن مُـفـداة ومـن فـادِي
سـارتْ سفائنُهم والـنـوْحُ يتبعُها
كـأنَّـهـا إبـلٌ يـحـدو بـهـا الـحـادي

كمْ سالَ في الماء من دمعٍ وكم حملَتْ
تلك القطائعُ من قطعاتِ أكبادِ

وبعد أن وصلت السفينة إلى المغرب أقام المعتمد وأسرته أيامًا في طنجة، ثم أُخذوا بعد ذلك إلى مكناسة، وقضوا هناك أشهرًا قبل أن يرحلوا إلى منفاهم في أغمات، وهي مدينة صغيرة تقع على مقربة من مراكش عاصمة دولة المرابطين، وكان قد سبق المعتمد إلى هذا المنفى «عبدالله بن بلكين» أمير غرناطة.

وفي أغمات عاش المعتمد كاسف البال، كسير القلب، يُعامَل معاملة سيئة، ويتجرع مرّ الهوان، ليس بجانبه من يخفف عنه مأساته، ويطارحه الحديث، فتأنس نفسه، وتهدأ، ينظر إلى بناته الأقمار، فيشقيه أنهن يغزلن؛ ليحصلن على القوت، ولكنه كان يتجلد، ويتذرع بالصبر، ويلجأ إلى شعره، فينفس عن نفسه بقصائد مُشجية مؤثرة، تدخل عليه بناته السجن في يوم عيد، فلما رآهن في ثياب رثّة، تبدو عليهن آثار الفقر والفاقة، انسابت قريحته بشعر شجيّ حزين:

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا
فساءَك العيدُ في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمارِ جائعةً
يغزلْنَ للناسِ لا يملكْنَ قِطميرا

بـــرزْنَ نـحـوَك لـلـتـسـلـيـم خـاشـعـةً
أبـصـــارُهـــنّ حـســيـراتٍ مـكـاسـيـرا

يـطـأْنَ فـي الـطـيـن والأقـــدامُ حافيةٌ
كـأنَّـهـا لـم تـطـأْ مـسـكًـا وكـافـورا

واشتـدت وطـأة الأَسْـرِ علـى إعتمـاد الرميكيـة زوجة المعتمـد، ولم تقـوَ طويـلاً على مغالبـة المحنـة، فتُوفيت قبل زوجهـا، ودُفنـت بأغمـات علـى مقربة مـن سجـن زوجها.

وطـال أَسْر المعتمد وسجنه، فبلغ نحو أربع سنوات، حتى أنقـذه الموت من هوان السجن وذلّ السجان، فلقي ربه في ١١ مـن شوال ٤٨٨هـ = ١٠٩٥م، ودُفن إلى جانـب زوجته، وقد أوصى بأن يكتب على قبره:

قَبرَ الغَريبِ سَقاكَ الرائِحُ الغادي
حَقًّا ظَفـرتَ بِأَشـلاء ابـنِ عَبّـادِ

بِالحِلمِ بالعِلمِ بِالنُّعمى إِذِ اتّصلَت
بِالخِصبِ إِن أَجدَبوا بالريّ لِلصادي

بالطاعِنِ الضارِبِ الرامي إِذا اقتَتَلوا
بِالمَوتِ أَحمَرَ بالضرغامة العادي

بالدَّهرِ في نِقَمٍ بِالبَحرِ في نِعَمٍ
بِالبَدرِ في ظُلَمٍ بِالصَّدرِ في النادي

نَعَم هُوَ الحَقُّ وَافاني بِهِ قَدَرٌ
مِنَ السَماءِ فَوافاني لِميعادِ

وَلَم أَكُن قَبلَ ذاكَ النَّعشِ أَعلَمُهُ
أَنَّ الجِبال تَهادى فَوقَ أَعوادِ

كَفاكَ فارفُق بِما استودِعتَ مِن كَرَمٍ
رَوّاكَ كُلّ قَطوبِ البَرقِ رَعّادِ

يَبكي أَخاهُ الَّذي غَيَّبتَ وابِلَهُ
تَحتَ الصَّفيحِ بِدَمعٍ رائِحٍ غادي

حَتّى يَجودَكَ دَمعُ الطَّلّ مُنهَمِرًا
مِن أَعيُنِ الزَّهرِ لم تَبخَل بِإِسعادِ

وَلا تَزالُ صَلاةُ اللَّهِ دائِمَةً
عَلى دَفينِكَ لا تُحصى بِتعدادِ